تجربة يسوع في البريّة

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

جبل قرنطل في أريحا المعروف أيضاً بجبل التجربة

«ثُمَّ سارَ الرُّوحُ بِيَسوعَ إِلى البَرِّيَّةِ لِيُجَرِّبَه الشيطان»

تأتي رواية صوم يسوع في البريّة بعد معموديته في نهر الأردنّ، حيث سُمع صوت الآب يقول: «هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت» (متى ٣: ١٧). هناك أيضاً نزل عليه روح الله بشكل حمامة. فكانت المعمودية ظهوراً إلهياً ليبدأ يسوع رسالته العلنية.

يبدأ يسوع رسالته بعد تحضير يتضمّن رسالة يوحنا المعمدان ومعموديته وصومه في البريّة: رواية ثلاثية حسب الأناجيل الإزائية، تدور كلّها في إطار جغرافيّ معيّن هو بريّة يهوذا. بعد ذلك يرجع يسوع إلى الجليل ليبدأ البشارة.

تجربة يسوع: المقدّمة (متى ٤: ١)

«ثُمَّ سارَ الرُّوحُ بِيَسوعَ إِلى البَرِّيَّةِ لِيُجَرِّبَه الشيطان. فصامَ أَربَعينَ يوماً وأَربَعينَ لَيلةً حتَّى جاع».

نزل الروح على يسوع في المعمودية وكان بذلك ظهوراً إلهياً. فسار الروح بيسوع والفعل يعني "رفع، حمل أو سار به"، ذلك أنّ وادي الأردنّ في منخفض وكان على يسوع أن يصعد إلى مرتفعات بريّة يهوذا. سار الروح بيسوع في البريّة كما سار الربّ بإسرائيل في الخروج. قال الرّبّ لشعبه: «حملتكم على أجنحة العقبان وأتيت بكم إليّ» (خروج ١٩: ٤).

أراد الله أن يختبر ابنه تجارب إسرائيل في البريّة كما يخبر عنها سفر الخروج. في مسيرة الخروج وقع الشعب في التجربة فابتعد عن وصايا الله ومتطلّبات العهد، بينما ينتصر يسوع على المجرّب في البريّة.

يذكر متى الشيطان ٦ مرات في الإنجيل، في رواية صوم يسوع في البرية، في تفسير مثل الزؤان، حيث يقول أنّ إبليس هو العدوّ الذي زرع الزؤان، بني الشرير (١٣: ٣٦ - ٣٩)، وأخيراً في عظة يسوع الأخيرية عن الدينونة العظمى: «إذهبوا عنّي، أيّها الملاعين، إلى النّار الأبديّة المعدّة لإبليس وملائكته» (٢٥: ٤١).

من هو الشيطان حسب العهد الجديد؟

منظر شيطان منحوت على رأسيّة عامود تمّ العثور عليه في الناصرة

الشيطان بالعبرية يعني العدوّ، بالمطلق عدوّ الله والإنسان. والكلمة اليونانية تعني "الفارق" لأنّه يفرق الإنسان عن الله، والّذي يدعوه متى هنا "المجرّب". لذلك تلقي هذه الرواية الضوء على تجارب يسوع الكثيرة خلال رسالته وعلى موقفه منها. باللغة العربية نستعمل كلمة "إبليس" وهو اسم علم جنس للشيطان.

يؤلّف الشيطان وملائكته مملكة عدوّة لملكوت السّماء. الشيطان هو من خلائق الله، ولكنّه سقط مع ملائكته بعد اتّهامه بني البشر أمام الله (راجع رؤيا ١٢ : ٧ – ١٢ وأيّوب ١ –٢). يدفع إبليس المؤمنين إلى الجحود وعصيان الله، كما يتبيّن من تجارب يسوع. يزرع إبليس الزؤان أي بني الشرير ويسرق بذور كلام الله (لوقا ٨ : ١٢) وينصب الفخاخ ليوقع النّاس في الخطيئة، لأنّه قاتل وكذّاب (راجع يوحنا ٨ : ٤٤ و١ يوحنا ٣). خيانة يهوذا من عمل الشيطان (يوحنا ١٣ : ٢) وكذلك الكبرياء (١طيموتاوس ٣ : – ٦) وبغض الإخوة: «وما يُمَيِّزُ أَبناءَ اللهِ مِن أَبناءَ إِبليس هو أَنَّ كُلَّ مَن لا يَعمَلُ البِرَّ لَيسَ مِنَ اللهِ ومِثلُه مَن لا يُحِبُّ أَخاه» (١يوحنا ٣ : ١٠).

ولكن لعمل إبليس نهاية لأنّ مصيره النّار الأبدية كما يقول متى (٢٥ : ٤١). فالمسيح انتصر عليه منذ الآن بصليبه كما يقول الإنجيليّ يوحنا: «اليَومَ دَينونَةُ هذا العالَم. اليَومَ يُطرَدُ سَيِّدُ هذا العالَمِ إِلى الخارِج» (١٢ : ٣١ وراجع ١٤ : ٣٠ و ١٦ : ١١).

يستطيع المسيحيّ الانتصار على إبليس لأنّ المسيح انتصر عليه، وهو مدعوّ للجهاد الروحيّ متسلّحاً بسلاح الله والحقّ والبرّ والإيمان وكلام الله والصلاة، كما يقول القدّيس بولس في رسالته إلى أهل أفسس:

«وبَعدُ فتَقوَّوا في الرَّبِّ وفي قُدرَتِه العَزيزَة. تَسلَّحوا بِسِلاحِ اللهِ لِتَستَطيعوا مُقاوَمةَ مَكايِدِ إِبليس، فلَيسَ صِراعُنا مع اللَّحمِ والدَّم، بل مع أَصحابِ الرِّئاسةِ والسُّلْطانِ ووُلاةِ هذا العالَم، عالَمِ الظُّلُمات، والأَرواحِ الخَبيثةِ في السَّمَوات. فخُذوا سِلاحَ اللهِ لِتَستَطيعوا أَن تُقاوِموا في يَومِ الشَّرِّ وتَظَلُّوا قائمين وقَد تَغَلَّبتُم على كُلِّ شيَء. فانهَضوا إِذًا وشُدُّوا أَوساطَكم بِالحَقّ والبَسوا دِرْعَ البِرّ وشُدُّوا أَقْدامَكم بِالنَّشاطِ لإِعلانِ بِشارةِ السَّلام، واحمِلوا تُرْسَ الإِيمانِ في كُلِّ حال، فبِه تَستَطيعونَ أَن تُخمِدوا جَميعَ سِهامِ الشِّرِّيرِ المُشتَعِلَة. واتَّخِذوا لَكم خُوذَةَ الخَلاصِ وسَيفَ الرُّوحِ، أَي كَلِمَةَ. أَقيموا كُلَّ حينٍ أَنواعَ الصَّلاةِ والدُّعاءِ في الرُّوح، و لِذلِكَ تَنبَّهوا وأَحيُوا اللَّيلَ مُواظِبينَ على الدُّعاءِ

لجميع القدِّيسين ولِي أيضًا ليوهَبَ لي أن أتكلَّمَ وأبَلِّغ بجُرْأة سرَّ البشارة، وفي سَبيلها أنا سَفيرٌ مُقَيَّدٌ بالسَّلاسِل. عَسى أن أجرُؤَ على التَّبْشير به كما يَجبُ أن أتكلَّم» (٦ : ١٠ - ٢٠).

والشهداء تغلّبوا على إبليس بواسطة المسيح وشهادتهم: «إنَّهم قد غَلَبوه بدَم الحَمَل وبكَلِمَة شَهادَتِهم، ولَم يُفَضِّلوا حَياتَهم على المَوت» (رؤيا ١٢ : ١١).

لذلك تكون تجربة يسوع في البريّة تجربة كلّ إنسان. نحن الذين جُرِّبنا في يسوع، يقول القدّيس أغسطينوس، انتصر المسيح فانتصرنا به وليس لنا من انتصار على إبليس وأعماله إلاّ بالمسيح.

وبما أنّ هذه التجارب تأتي قبل الرسالة تكون بمثابة مقدّمة لها، مثل المعمودية، لتعبّر عن اختيارات يسوع الأساسية: يعمل الابن الحبيب بالطاعة للآب حتى النهاية، منتصراً على المجرّب. الجوع بداية التجربة، كما يردّد سفر تثنية الاشتراع: «فذلّك وأجاعك» (٨ : ٣). لذلك باستطاعتنا وصف التجارب الثلاث بالجوع إلى السلطة الاقتصادية (٤ : ٣ - ٤) والجوع إلى السلطة الدينية (٤ : ٥ - ٧) والجوع إلى السلطة السياسية (٤ : ٨ - ١٠).

التجربة الأولى: الأرغفة

«فدَنا منه المُجَرِّبُ وقالَ له: إن كُنتَ ابنَ الله، فمُرْ أن تَصيرَ هذه الحِجارةُ أَرغفة» (٤ : ٣).

يسوع في المركز والمجرّب دنا منه وقال له: «إن كنت ابن الله». تتعلّق تجربة الشيطان بما قاله الآب في المعمودية: «هذا هو ابني الحبيب الّذي عنه رضيت». سوف تأخذ تجربة يسوع حجمها الكامل على الصليب، عندما كان المارّة يشتمون يسوع وهم يهزّون رؤوسهم ويقولون: «يا أيُّها الَّذي يَنقُضُ الهَيكلَ ويَبنيه في ثَلاثَة أيَّام، خَلِّصْ نَفسَكَ إن كُنتَ ابنَ الله، فانزلْ عن الصَّليب» (متى ٢٧ : ٣٩ - ٤٠). مما يعني أنّ تجربة يسوع في البريّة كانت البداية التي ميّز فيها المَسيح نهج رسالته، بالطاعة الكاملة للآب حتى الموت على الصليب، علامة الحبّ الأزليّ القائم بين الآب والابن، وطريق الخلاص لجميع البشر.

يسوع ابن الله والشيطان يدفعه لاستعمال سلطته لذاته: «فمُرْ أن تصير هذه الحجارة أرغفة». جاع يسوع وكان بقدرته أن يحوّل الحجارة إلى أرغفة.

أجابه يسوع: «مكتوبٌ: ليسَ بالخُبزِ وَحدَه يَحيَا الإنْسان بل بكُلِّ كَلِمَة تَخرُجُ من فَم الله».

"مكتوب" يقول يسوع، مستشهداً بآية من سفر تثنية الاشتراع، ليؤكّد أنّ الحياة هبة كلمة الله، لذلك يجب أن تكون في المرتبة الأولى. والاستشهاد بآية من الكتاب هو الحجة الأقوى في الجدال. بالنسبة ليسوع، الرجوع إلى الكتاب المقدّس وسيلة ضرورية للتغلّب على الشيطان.

يرجع يسوع إلى حدث الخروج وكيف أعطى الله المنّ لشعبه في البريّة. فكان الجوع بمثابة امتحان للإيمان: هل يبقى الشعب مؤمناً بقدرة الله وقوة كلمته التي تعطي الحياة؟

يفسّر سفر الحكمة الحدث بهذه الكلمات: «فعَلِمَ بَنوكَ الَّذينَ أَحبَبتَهم يا رَبّ أن لَيسَ ما يَخرُجُ مِنَ الثِّمار هو يُغَذّي الإنْسان بل كَلِمَتُكَ هي الَّتي تَحفَظُ المؤمنينَ بِكَ» (١٦ : ٢٦).

يجيب يسوع إذن على تجربة الجوع في البريّة من خلال الثقة والإيمان بقدرة كلام الله وبعنايته. بقدرة المسيح أن يحوّل الحجارة إلى أرغفة، يقول الشيطان. بالطبع، يقول يسوع، ولكن حسب الكتاب المقدّس الغذاء الأساسي للحياة هو كلام الله، أي الطاعة لوصاياه.

يدخل الشيطان في حوار كتابيّ مع يسوع، يدور حول كيفية تفسير الكتاب المقدّس، ذلك أنّ المعرفة الحرفية غير كافية، لأنّها تتطلّب دائماً التفسير. ولكن من يفسّر الكتاب المقدّس تفسيراً صحيحاً؟ سوف يُظهر الشيطان معرفته لحرف الكتاب ويعطي التفسير الذي يريده هو. بينما يسوع، المعلّم الإلهي، وحده القادر على إعطاء المعنى لكلّ ما كُتب، والبرهان على ذلك السير قدما بالرسالة الموكلة إليه من الآب حتى النهاية.

"شرفة الهيكل" – أعلى نقطة في السور المحيط بهيكل سليمان
«وأقامه على شرفة الهيكل»

التجربة الثانية: شرفة الهيكل

أخذ إبليس المبادرة، فمضى بيسوع إلى المدينة المقدّسة، إلى أورشليم (راجع متى ٢٧: ٥٣)، "مدينة الملك العظيم" (متى ٥: ٣٥).

بهذه الالقاب التعظيمية كانت تدعى أورشليم في زمن يسوع، وذلك حسب تقليد العهد القديم. أورشليم مكان سكنى الله: «لا تَصنَعوا هكذا نَحوَ الرَّبِّ إلهِكم، بل المَكانُ الَّذي يَختاره الرَّبُّ إلهُكم مِن أَسْباطِكم كُلِّها لِيَجعَلَ فيه اسمَه ويَسكُنَ فيه، إيَّاه تَلتَمِسون وإلى هُناكَ تُقبل» (تثنية ١٢: ٤ – ٥). ويدعو الأنبياء أورشليم "المدينة المقدّسة": «إستَيقِظي آستَيقِظي إلبَسي عِزَّكِ يا صِهْيون إلبَسي ثِيابَ فَخرِكِ يا أُورَشَليم يا مَدينَةَ القُدْس» (أشعيا ٥٢: ١). بهذا اللقب يذكرها عدة مرّات سفر الرؤيا مما يدلّ على أنّ التسمية كانت متبّعة من قبل الكنيسة الأولى (رؤيا ١١: ٢). هكذا استمرّ التقليد لدى المسلمين فصار اسم المدينة "القدس".

يتابع متى قائلاً: «وأقامه على شرفة الهيكل». «شرفة»، تصغير لكلمة يونانية تدل على طرف أو جناح البناء أو أعلى نقطة منه، مثل البرج أو السطح. يمكن التفكير بالزاوية الجنوبية الشرقية المرتفعة من جدار الهيكل والمطلّة على وادي قدرون. كما يمكن أن تعني شرفة "الباب الملكي" في الجنوب والذي يذكره المؤرّخ يوسيفوس، واصفاً ارتفاعه كالذي يسبّب الدوار. في التقليد الرابانى

تعني الكلمة سطح بناء الهيكل.

هناك على شرفة الهيكل، طلب إبليس من يسوع أن يقوم بآية خارقة تثبت للجموع في محيط الهيكل أنّه المسيح ابن الله. كان يسوع قد أجاب الشيطان بآية من الكتاب المقدّس، لذلك يعتمد الشيطان على آية من المزمور الواحد والتسعين ليجرّب يسوع:

«إِن كُنتَ ابنَ الله فألقِ بنَفسكَ إِلى الأسفَل، لأَنَّه مَكتوب: يُوصي مَلائكتَه بِكَ فعلى أَيديهم يَحمِلونَكَ لِئَلاَّ تَصدِمَ بِحَجَرٍ رِجلَكَ».

يستشهد إبليس بآية منقوصة، أمّا المزمور ٩١ فيعني عناية الله بأبنائه في حياتهم اليومية، إذا اتكلّوا عليه وثابروا بالإيمان. ذلك أنّ المزمور لا يدلّ على تجربة الله من خلال طلب ما هو فائق الطبيعة والبحث عن الخوارق، لأنّ المؤمن يعرف كيف يعيش حياته اليومية بحضرة الله. ولكن عبارة «الساكن في كنف العليّ» من الآية الأولى من المزمور تعني، حسب التفسير التقليدي، المسيح. يريد الشيطان تجربة يسوع لأنّه المسيح ابن الله.

لذلك يجيب يسوع بآية من سفر تثنية الاشتراع: «مَكتوبٌ أَيضاً: لا تُجَرِّبَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ» (٦: ١٦).

يجرّب الإنسان الله عندما يفقد الثقة والإيمان به فيقصد عصيان أوامره. هذا ما نتبيّنه من خلال الشواهد الثلاث من سفر تثنية الاشتراع التي يذكرها يسوع. إسرائيل جرّب الله في البريّة عندما فقد إيمانه بسبب تعب المسيرة، فراح يطلب من الله آية تلو الأخرى. بينما يسوع يرفض التجربة معلناً ثقته بعناية الآب.

التجربة الثالثة: السجود

«ثُمَّ مَضى به إبليسُ إِلى جَبَلٍ عالٍ جدّاً وأَراهُ جَميعَ مَمالِكِ الدُّنيا ومَجدَها، وقالَ له: أُعطيكَ هذا كُلَّه إِن جَثوتَ لي ساجِداً» (متى ٤: ٩).

يحدّد التقليد المكان في جبل قرنطل، فوق مدينة أريحا. ولكن الجبل عامة في متى هو موضوع أدبيّ وله دور خاص في رسالة الإنجيل الأول.

يستذكر النصّ رؤية موسى للأرض المقدّسة على جبل نيبو (تثنية ٣٤). من الجدير بالذكر أنّ إبليس لا يدعو يسوع قائلاً: «إن كنت ابن الله»، ذلك أنّ ممالك الدنيا ما زالت تحت سيطرة الشيطان وتختلف عن ملكوت السّماوات الذي سوف ينادي به يسوع بعد انتهاء التجربة. سوف يحصل يسوع القائم من بين الأموات على كلّ سلطان في السماء وفي الأرض، ليكون سيّد الكون (متى ٢٨: ١٨). ولن يحصل هذا إلا بعد انتصاره التامّ على الشرير، بموته وقيامته من بين الأموات، أي من خلال الطاعة للآب وعملاً بالرسالة الموكلة إليه منه، لأنّه المسيح ابن الله.

يقدّم الشيطان ليسوع السلطة على ممالك الأرض، بشرط إبعاده عن بنوّته الإلهية بالسجود له. هنا يظهر بوضوح قصد المجرّب: فصل يسوع الإنسان عن الله. فيجيبه يسوع قائلاً:

«اِذهَبْ، يا شَيطان! لأَنَّه مَكتوب: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسجُد وإِيَّاهُ وَحدَه تَعبُد».

كنيسة التجربة داخل دير الروم الأرثوذكس - جبل قرنطل
وأسفل الهيكل (المربع الصغير) نجد الحجر
الذي جلس إليه يسوع خلال التجربة بحسب التقليد

بطاعته لله، يُبعد يسوع الشيطان عنه وعن رسالته لخلاص العالم. لا يحقّ السجود والعبادة إلاّ لله ، كما تقول الآية التي يستشهد بها يسوع من سفر تثية الاشتراع ٦ : ١٦.

«اذهب يا شيطان»، قال يسوع للمجرّب، ولم يقلها للمرة الأخيرة خلال رسالته، إذ نسمعه يقولها لأحد أحبّائه، بطرس الرسول، بعد اعتراف هذا الأخير بيسوع قائلاً: «أنت المسيح ابن الله الحيّ» (١٦ : ١٦)، ذلك أنّ بطرس لم يتقبّل فكرة الآلام التي يجب أن يعانيها المسيح فانفرد بيسوع وجعل يعاتبه فيقول: «حاش لك يا ربّ! لن يصيبك هذا». فالتفت يسوع وقال لبطرس: «إنسحب! ورائي، يا شيطان، فأنت لي حجر عثرة، لأنّ أفكارك ليست أفكار الله، بل أفكار البشر» (١٦ : ٢٢ - ٢٣).

تساعدنا إعادة هذه العبارة في حوار يسوع مع بطرس على فهم تجربة يسوع في البريّة ودور التجربة على مدى الرسالة. من الآب تسلّم الرسالة وبالطاعة له حقّقها حتى الموت على الصليب، رافضاً كلّ التجارب التي تعرّض لها.

يرد مصدر الفعل "جرّب" ٩ مرات في إنجيل متى، ثلاث مرات في رواية التجربة في البريّة. يخبرنا الإنجيل كيف جاء إليه الفرّيسيّون والصّدّوقيّون ليجرّبوه، فسألوه أن يريهم آية من السّماء (متى ١٦ : ١). وكذلك الأمر عندما سألوه عن الطلاق (متى ١٩ : ٣). ولمّا دخل أورشليم حاول الخصوم، هيرودسيّون وفرّيسيون وصدّوقيّون، أن يصطادوا يسوع بكلمة فسألوه عن أداء الجزية وقيامة الأموات وأكبر الوصايا (٢٢ : ١٥ - ٤٠).

رفض يسوع تجربة السلطة الاقتصادية عندما ابتعد عن الجموع بعد معجزة الخبز والسمك (١٤ : ٢٢)، ويعبّر الإنجيل الرابع بوضوح عن قصد يسوع رفض التجربة: «وعلم يسوع أنّهم يهمّون باختطافه ليقيموه ملكاً، فانصرف وعاد وحده إلى الجبل» (يوحنا ٦ : ١٥).

لم يسقط يسوع بتجربة السلطة الدينية لأنّه قبل مشيئة الآب في بستان الزيتون، عندما صلّى قائلاً: «يا أَبَتِ، إِذا لم يَكُنْ مُمكِناً أَن تَبتَعِدَ عَنِّي هذِهِ الكَأسُ أَو أَشرَبَها، فَلْيَكُنْ ما تَشاء» (متى ٢٢ : ٤٢).

وأخيراً رفض يسوع تجربة السلطة السياسية عندما قال لتلاميذه الذين كانوا يبحثون عن المراكز الأولى في ملكوت يسوع: «تَعلَمونَ أَنَّ رُؤَساءَ الأُمَمِ يَسودونَها، وأَنَّ أَكابِرَها يَتسلَّطونَ عَلَيها. فلا

يَكُنْ هذا فيكُم، بل مَن أَرادَ أَن يكونَ كبيراً فيكُم، فَلْيَكُنْ لَكُم خادماً. ومَن أَرادَ أَن يكونَ الأَوَّلَ فيكُم، فَلْيَكُنْ لَكُم عَبداً: هكذا ابنُ الإنسان لم يأتِ لِيُخدَم، بَل لِيَخدُمَ ويَفدِيَ بِنَفسِهِ جَماعَةَ النَّاس» (متى ٢٠: ٢٥ – ٢٨).

«ثُمَّ سارَ الرُّوحُ بِيَسوعَ إِلى البَرِّيَّةِ لِيُجَرِّبَه الشيطان. فصامَ أَربَعينَ يوماً وأَربَعينَ لَيلَةً حتَّى جاع»

الملائكة تخدم يسوع

«ثُمَّ تَرَكَه إبليس، وإِذا بِمَلائكةٍ قد دنَوا منهُ وأَخذوا يَخدُمونَه».

بهذه الآية يعبّر متى عن انتصار يسوع على الشرير، لأنّه يعمل ويحيا بالطاعة البنويّة والحبّ للآب. رفض يسوع أن يقدّم الطعام لنفسه كما اقترح عليه الشيطان، فتقبّله من الملائكة، أي من الله عن يد الملائكة. وسيعلّم يسوع تلاميذه أن يطلبوا وينالوا هذا الطعام من الآب: «أعطنا خبزنا كفاف يومنا».

خاتمة

عَلَّمَنا يسوع أن نصلّي قائلين: «ولا تدخلنا في التجربة»، لأنّ الانتصار على التجربة نعمة منه، هو الذي جُرّب من أجلنا فانتصرنا بانتصاره على الشرّير.

صام يسوع في البريّة، فصار الصوم في الكنيسة اتبّاعاً للمسيح. هذا ما تُعَلِّمنا إيّاه الكنيسة في صلاة المقدّمة الافخارستيا للأحد الأول من الزمن الأربعينيّ:

«إنّه منذ ان انقطع عن الطعام، اربعين يوماً في البريّة
أقرّ مثل هذه المدّة للصوم، فصارت زمناً مقدّساً كريماً.
وإذ تغلّب على مكايد الحيّة الجهنميّة القديمة
علّمنا أن نقاوم في كلّ حين جميع مغريات الخبث والفساد».

ليكن صومنا اتبّاعاً للمسيح، فنقبل دعوتنا ورسالتنا من الله، ونتمّم ما علينا من واجبات بروح الخدمة والعطاء والبذل مثل يسوع، قائلين كلّ يوم بإيمان:

لتكن مشيئتك يا أبانا
ولا تدعنا نسقط في التجربة
إكراماً لانتصار ابنك يسوع على الشرير
في البريّة وفي الرسالة وعلى الصليب.
رفض الشرير لأنّه يحبّك منذ الأزل
فصارت المحبّة لك وللقريب درب النصر والقيامة.